العلوم

العنصرية

للدكتور احمد زكى

قامت النازية الالمانية على مبادىء عدة ، منها السياسى ومنها الاقتصادى ومنها الادارى ، ولكن لعل أخطر من هؤلاء جميعاً وأكثر وروداً على ألسنة خطبائها ، وأسرع إذكاء لحمية مستمعيهم ، ذلك المبدأ الغالى الذى يعتمد على القومية الخالصة والدم الصريح ، فى استنهاض الشعب الجرمانى الى كل ما تقول به النازية وتدعو اليه من العقائد والأعمال .

لو أن النازية قصدت إلى تمجيد قومها ، وغالت فى ذلك ما شاءت وشاءت لها الدعاية ، لما شكا أحد مما تقول ، ولو أنها غالت حتى ألّهتهم ، لنظرت اليها الأمم بابتسامة عريضة يستتر وراءها اغتباط هادئ من تذوق فكاهة هائلة ، فى عالم يحسن أن تكثر فيه الملح والنكات . أما وقد أرادت أن تمجد قومها بتجريد غيرها من الأقوام ، وأن تزيد فى أولئك بانتقاص هؤلاء ، فقد أثارت حفائظ الأمم ، وأيقظت عزة الأجناس البشرية ، فاستقاموا فى جلستهم يستمعون لجدّ حسبوه مزاحا ، وتقطبت من جباههم أسارير للتفكير ، بعد أن كانت قد انبسطت وجوههم بالبشر ، و ذلك لما رأوا المهزلة تستحيل الى مأساة ، ووجدوا النازية تطرح على كتفيها روب الأستاذ العالم الانثروبولوجى ، ينظر فى أصول الأمم ، ويقدّر قيم الأصلاب ، ويضع الخلق فى منازل تعلوها جميعاً تلك النطف الجرمانية التى ادخرتها الآلهة على الأجيال ، لتنحدر الى الوجود فى القرن العشرين فتكون للناس سادة أمثالا ، وتكون هدى وبشرى للعالمين . وكل ذلك باسم العلم

لذلك تصدى للرد على هذه النظرية التى اتخذت صورة علمية ، رجال من رجالات العلم ، ولعل أكثر هؤلاء اعتدالا رجل متحدر هو نفسه من أصلاب جرمانية ، ذلك هو (ملكرام بيسل) الأستاذ بجامعة كاليفورنيا . قال :

قلّ من يخالف فى أن الجنس الجرمانى جنس عظيم ، وأما أنه أعظم جنس كان فى كل زمان ومكان ، وأن كل مدنية كانت وتكون ، اعتمدت وستعتمد على هذا الجنس ، فذلك ما لا تحتمله أكبر المخيّلات إسرافا ، ولا تتسع له أكثر الحلوم رخاوة وسماحة . ومثل هذه المغالاة ، لاسيما اذا استُعير لها لسان العلم ، ستظل دائماً نذيراً بأن الانسان لا تزال عواطفه سيدة عقله ، وهواه حاكم صوابه . يدخل الأمر نفوسنا ويستأذن فى لطيف على قلوبنا ، فيهد كل أهوائنا توافقه ،

ومن هذين الرباعيين يتكون السلم الموسيقى الشرقى العام مع اضافة مسافة صوتية كاملة بعد الجهاركاه ليختم السلم بجواب مقام اليكاه وهو النواه . ويصبح ترتيبه كاملا كما يلى

نواه $\frac{8}{9}$ جهاركاه $\frac{2048}{2187}$ سيكاه $\frac{59049}{65536}$ دوكاه $\frac{8}{9}$

رصد $\frac{2048}{2187}$ عراق $\frac{59049}{65536}$ عشيران $\frac{8}{9}$ يكاه

بقى بعد توضيح الفوارق بين تقسيم السلمين الشرقى والغربى ان نذكر شيئا عن الانغام والأوزان فى كلتى الموسيقيين ، وارجو أن يستجيب فرصة قريبة ان شاء الله على صفحات من الرسالة المجيدة

مدحت عاصم

وكل ميولنا تناصره ، فنألف هذا الأمر ، ثم نعتقده ، ثم من بعد ذلك تتطلب الحجج على أنه الحق . نعتقد صواب شيء ، نعتقد أن الجرمانيين سادة الأجناس لأننا نحن جرمانيون ، أو أن النصرانية أقوم الأديان لأننا نحن نصرانيون ، أو أن هذا الحزب أصدق الأحزاب لأننا له متحزبون ، ثم من بعد هذا ، ومن بعد هذا فقط ، ننظر في الأدلة لنصرة معتقدنا ، ونخرج في سهولة أو يسر تلك البراهين التي تعزز مذهبنا ، وتلك الأدلة لا شك آتية ، وتلك البراهين لا شك غير مستعصية ، وبذلك نحسب أن عملية التخريج تمت ، وأن العلاقة بين السبب والمسبَّب استبانت ، فيتأكد بذلك معتقدنا ويزيد به ايماننا . ونحن نتَّبع أسلوب هذا المنطق الطريف غير شاعرين ولا متيقظين اليه ، ويتبعه العلماء كما يتبعه السوقة بمثل تلك الغفلة ، فهو أسلوب مستتر خفيّ ، أخطر ما فيه تستره وخفاؤه

ليس في دعاوى النازيّة اليوم من جديد ، فهي تكملة للدعوى التي بدأت في القرن التاسع عشر ، وهي مثل من أمثلة عدة لم يسلم منها قرن من القرون ولا شعب من الشعوب . فالشعوب دائما تميل للسيطرة على الشعوب بدعوى تفوق الجنس ، وتستغلهم بحجة قوة الدماء وخلوصها ، وتبعث فيهم حثّا بحقارة أنفسهم للفقر وخلط في دمائهم ، ووخمة في أصولهم ، فهي إذن دعاوى للعيش وأسباب للغلبة . أكثر منها دعاوى في العلم وقضايا في المنطق.

ليس مذهب الجرمانية الا فرعا من مذهب الآرية ، وكان من أكبر دعاة هذا المذهب وشارحيه ، الكونت « جوزف دي جوبينو Josef Arthur de Gobineau » ، كان فرنسيا أرستقراطيا مات عام ١٨٨٢ ، ادعى جوبينو أن الآريين خلقوا ثم أمدّوا بالروح والنور كل ما هو جميل وعظيم في الحضارة . ونسي أن يثبت وجود هؤلاء الآريين كجنس واحد نقي خالص . أن فكرة الآرية نشأت من دراسة لغات بعض الامم الاوروبية وبعض الامم الاسيوية ، والاهتداء الى وجود أشباه بين تلك اللغات ، أدّى الى افتراض أنها جميعا مشتقة من لغة واحدة هي الآرية ، وذلك فرض علمي لا شبهة فيه. استنتج جوبينو وأشياعه من وجود لغة آرية وجود شعب آريّ قديم عزا اليه حضارات الازمان الخوالي ، وزعم أن هذا الجنس الآري هاجر الى شمال أوروبا فتحدرت منه الشعوب التيوتونية والانجلو سكسونية ، فهي لذلك سبب الحضارات الحالية والعلة في استمرار وجودها . وفات جوبينو أن وجود لغة واحدة ليس بدليل قاطع على وجود جنس واحد ، وان اتحاد اللغات في أمتين أو أمم ، ليس بحجة على اتحاد الاصلين او الاصول ، فقديما ما أعارت الامم اللغات واستعارت ، فوجود جنس آريّ كالذي تحسبه النازيّة اليوم ، لم يقم عليه أي دليل

والعنصر الجرماني نفسه مجهول الاصل ، وفوق هذا فلا يستطيع أحد ان يدعي له أرومة خالصة . انه عنصر شديد قوي ، ولا شك أن اختلاط دمه بدماء أوروبا الوسطى والجنوبية كان له أثر كبير فيما حدث هناك من التقدم والارتقاء ، ولكن ما يقال في العنصر الجرماني يقال في سائر العناصر ، فكثيرا ما أدى اختلاط عنصرين الى عنصر جديد أشد وأكثر حياة من أصليه .

على أن العلم الى اليوم لا يستطيع بثقة أن ينسب الى أية مجموعة بشرية ، خصالا خاصة عتيقة ثابتة فيها ، لأنه الى اليوم لا يدري كيف يقيس هذه الخصال برغم ما أسموه « مقاييس الذكاء » ، فتلك مقاييس ثبت مراراً وتكراراً أنها لا تقيس الذكاء وحده وانما تقيس معه آثاراً من البيئة والثقافة لا يمكن عزلها عنه . ومع هذا لا نفتأ نسمع الخرافة الجرمانية تلوكها الألسن ، وتتردد على الأسماع ، فمجد الاغريق كان بسبب غزو الجرمان ، وروما دام عزها ما بقي سلطانها بقاء دمها الجرماني خالصا صريحا ، فلما اختلط حاق بها ما حاق ، واسبانيا لم تستيقظ الى ما استيقظت اليه الا بسبب ما دخل عروقها من الدم التيوتوني ، « والنهضة » الاوروبية نفسها لم تكن الا ظاهرة جرمانية صرفة

يقولون ان الرومان والاغريقيين كانوا وهم في أوج عزهم جرمانيين صرحاء . ليس من السهل الحكم على ما كانت تتألف

منه أمم قديمة كالاغريق والرومان ، ولكن من الثابت انه فى العصور التى سبقت ، كانت حروب وكانت فتوح ، وكانت غلبة وكان انغلاب ، وكانت هجرة وكان تشتت ، فلم يرتبط قوم بأرض ، ولم ينعزل جنس بسبب ذلك عن جنس ، فلم يكن فى عصر الأغريق ولا فى عصر الرومان دم لم يختلط ، ولا عنصر لم يتلقح ، فكل مايقال عن خلاص الساينين Sabines (١) والاترسكانيين Etrucsans (٢) وحتى عن نقاء الرومان والاغريق ، لايمكن تدعيمه على ماهو معروف اليوم فى علم الاجناس . قالوا وشادوا بان الأسبرطيين جرمانيون خلصاء ومع ذلك أدخلهم « دكسن » Dixon فى عداد الألبيين Alpines . وقالوا وشادوا بأن الاترسكانيين جرمانيون خلصاء ومع ذلك قال عنهم هرتس Hertz مؤلف «الشعوب والمدنية» أنهم لم يكونوا من المجموعة الهندية الجرمانية ، وأن هذا ثابت ثبوت يقين

ان العنصر له أثر لا ينكر فى احداث المدنيات وتنشيء الشعوب ولكن هناك أمور أخرى لاتقل آثارها عن أثره ، ولا تنجم عن تأثيره ، وهى تلك التى ينكرها المتطرفون من دعاة العنصرية وغلاتها . ليس من العلم فى شيء أن ننسب عظمة الاسبان مثلا الى دخول الدم الجرمانى اليهم ، وسقوطهم الى دخول دماء اخرى غير جرمانية ، ثم نغفل العوامل التاريخية والجغرافية الكبرى التى كان لها أثر كبير فى تلك الرفعة وهذا الهبوط . واذا عزونا كل مدنية الى الدم الجرمانى وكل تقدم اليه ، فكيف نفسر تلك المدنية العربية التى ازدهرت يوما ما فى الاندلس وطالت ماحولها من المدنيات الاوروبية طولا كبيرا

ان إبطال الدعوى الجرمانيه بل تـخيفها عمل يسير هين . ولكن العمل الشاق الذى يتعب الأفهام ويجهد العقول ، انما هو تسبيب نشوء المدنيات ، وتسبيب انحطاطها أو زوالها . الناس تجنح دائما كما يجنح الالمان اليوم الى جعل العنصر العامل الوحيد فى ذلك ، الذى تتضاءل دونه العوامل ، والسبب الذى لاتستأهل سائر الأسباب الى جانبه ذكرا . خطأ كبير تغذيه العاطفة ، وسهولة فى تبسيط القضايا لاتسيغها العقول العلمية الهادئة . من بدء أزمان لاتقدر ، الى ماقبل قرون قلائل كان الجنس الجرمانى يسكن شمال القارة الأوربية ، وكان جنسا غير مذكور ولامأبوه له ، وكان أحط الأمم الاوربية سكانا ، فاين كانت خواصه الالهية ، وصفاته السماوية كل تلك القرون ؟ أكان عاجزا عن خلق مدنية لنفسه ؟ أم هى المدنية نشأت عند غيره وقريبا منه ، ومع ذلك خاب برغم قرب المساس عن اقتباسها واستعارتها ؟ أم الحقيقة هى التى تقول ، ان العنصر وحده غير كاف لخلق المدنيات واستنباط الحضارات

بدأت الحضارات فى مصر والعراق والهند وشرق البحر الابيض ، ومشى التاريخ قدما فانتقلت مراكزها الى اواسط هذا البحر ثم الى غربه ، ثم مشى التاريخ خطوات أخرى فبلغت الحضارة بحر الشمال والمحيط الأطلسى ، وعندئذ ، وعندئذ فقط ، بدأ العنصر الجرمانى يظهر فى التاريخ ، فان كان العنصر وجده قبلنا بكل شيء فكيف ظل الجرمان ابرة كل الاحقاب بينما كانت العناصر الأخرى ، وهى وطيئة فى زعمهم ، تخترع الحروف وتبتدع الارقام وتخط البحار بالتجارة وتبنى الدول وتقيم الحضارات

ان الجزر البريطانية تألفت سكانها فى القرن الثانى عشر من نفس العناصر التى تألف منها فى القرن العشرين ، الا فى اليسير الحقير ، وقد كانت فى اوائل القرن السادس عشر جزرا لاشأن لها ولاخطر ، ولم يمض على ذلك العهد غير قرنين حتى وجدناها قوة عظيمة فى دول العالم . فكيف جاءها هذا الشأن وذلك الخطر ، والعنصر هو هو لم يتغير ؟ أليست العوامل التاريخية والجغرافيه اذن أبعد أثرا من كل ماعداها ؟ كانت الجزر البريطانية فى طرف اوربا ، والحضارة متركزة فى شرق البحر الابيض أو وسطه ، فلم يكن لبريطانيا ذلك المساس الذى لابد منه لاشتعال الثقاب ، لذلك لم يكن لها فى الحضارة

(١) شعب ايطالى قديم كان يعيش فى جبال أبينين الوسطى
(٢) شعب آخر قديم كان يسكن أواسط ايطاليا

قول كبير ولاعمل خطير ، ثم استكشفت أمريكا ، وبين عشية وضحاياً انقذفت بريطانيا فى وسط المسرح العالمى ، فلم يكن لها بد من تمثيل دورها ، وانتقل مركز المدنية الى غرب أوربا حيث بقى ويبقى سنين طوالا ، حتى أصبحت لفظة الغرب علما على المدنية ، واصبحت انجلترا قائدة الامم ، وان كان لعنصرها الجرمانى أثر فى هذا الانقلاب ، فهو لا يقارب فى شدته الاثر الذى للحوادث والتاريخ والجغرافيا معا . ولنفس تلك الاسباب زالت عن ايطاليا تلك السيادة التى كانت لها يوم تربعها فى وسط المسرح العالمى ، فى وسط البحر الابيض المتوسط حينما كان هذا البحر عظيما لوقوعه فى الطريق الى الشرق وأهله ، ولكن كشف امريكا قذف بايطاليا حفيدة الرومان من بؤرة الرقعة الى طرفها ، وفى الوقت نفسه كشفوا عن طريق الهند الآخر ، فلم يكن بد من نزول ايطاليا حفيدة الرومان عن قوتها وثروتها وجاهها نزولا سريعا كسرعة الحوادث فى ذلك المكان الغربى النائى من سطح الارض . فهل نسب هذا التنزول الى العنصر وهو الذى اليه نسبنا الصعود فى سالف الدهور ؟

ثم المخترعات الحديثة وعلى رأسها البخار ، أحدثت فى العالم السياسى والاجتماعى والاقتصادى احداثا أين منها أثر العنصر ؟ ان التاريخ فى القرنين الفائتين كتب بالفحم الاسود والحضارات قيست بعدد الاحصنة البخاريه التى للامم ، حضارات بنيت على الفحم والحديد ، فالفحم والحديد عاملان جغرافيان أين منهما أثر العنصر ؟ فلولم يكن فى صخور انجلترا وامريكا ذلك الذخر الكبير من الرقود الصلب والسائل لكان للتاريخ الأخير مجرى غير الذى كان برغم الـ ـة ودعاتها

ان الامم كالافراد تتألف نجاحها من عاملين ، عامل الوراثة وعامل البيئة ، ومن عوامل البيئة العوامل الجغرافية التى ذكرنا مثلا منها ، ولعوامل البيئة هذه أثر لا يناهض فى تقـــدم الانسان أو تأخره ، وهى على الاقل تضع حداً جازماً لتقدمه لا يمكنه تجاوزه . والحضارات أنتجت انسانية نادرة نشأت من الارض فى بقاع متفرقة ، كانت كلها نتيجة انفعال الانسان لبيئته وتفاعله معها وتغيير نفسه وحاله وفقا لها ، وعلى هذا لا يمكن مقارنة مدنية بمدنية ولا مقدرة شعب بشعب الا إذا قارنا بيئتيهما وهذا جد عسير ، ودون هذا لا تمكن اقامة الدعوى على أن قوماً غير أهل لمدنية لانهم وهم فى بيئة خاصة خابوا فيما حاولوه . ان المايا س Mayas واليوكاتان Yucatan قبيلان من الناس كبـــيران كانت لهما مدنيتان زاهرتان فى أمريكا الوسطى قبل الفتح الكولومبى بقرون فلو أنك قرنتهما بالاغريق فربما خرجت بأنهما دون هؤلاء عنصراً ، لانهما لم يأتيا بمثل ما أتى الاغريق . ولكن اذا علمت ان هذين القبيلين كانا يعملان فى عسر من الطبيعة شاق ، فقد حرمتهما الدواب وحرمتهما الحـــديد ، فلم يعرفا لهذه رسما ولا لهذا اسما ، وامتحنت بعد ذلك ما خلفا لوقعا من نفسك موقعا قد يناهض موقع الاغريق أو يعلوه

احمد زكى

رسالة العـــلم

صحيفة علمية نصف سنوية أصدرتها جمعية خريجى كلية العلوم فى مائتو خمسين صفحة كلها مليئة بالمقالات العلمية الممتعة فى كل ضرب من ضروب العلم ، بأقلام طائفة من الشباب العامل الرزين المنتج ، مجموعة من بواكير لا تحسبها عند القراءة بواكير ، كتبت للجمهور المثقف العالى ، جمعت الى سهوله اللفظ صواب الحقيقة فى وفرة ولذة وحسن اختيار ، فالرسالة تهنىء تلك الطائفة الكريمة بما انتجت ، وتغتبط بالمعنى الذى أوحى لها الاسم الذى اختارته لصحيفتها ، وترجو لهم التوفيق الدائم فى جهودهم العلمية الكبيرة التى هى من جهود مصر وظاهرة من أمس الظواهر بمستقبلها الزاهر المرجو